التفسير الموضوعي لكلمة (رأس) في القرآن الكريم

مدرس دكتور أحمد حنون ميس

كلية التربية- الجامعة المستنصرية

ملخص البحث:

يُعني هذا البحث بالاستقراء الموضوعي لكلمة (رأس) في القرآن الكريم وتتبعها في موضعها وفي ضوء المقام الذي سيقت لأجله لمعرفة دلالتها واستنباط معناها من خلال نظْمها الذي جَرَت عليه، وهو في حقيقته عبارةٌ عن تفسيرٍ موضوعيٍّ لمفردةٍ قرآنيةٍ كثُر ورودها في القرآن الكريم، إذ يُعد نوعاً من أنواع التفسير الموضوعي الذي يختص بالبحث عن المفردة القرآنية لأجل استكناه أسرارها وبيان لطائفها. وبالاستقراء التام لهذه المفردة في الترتيل العزيز وجد الباحث أنها وردت في ثمانية عشر موضعاً من الذكر الحكيم ولكلِّ موضع من هذه المواضع استعمال خاص ودلالة خاصة سِيقت لأجله، كشف عنها البحث بين طياته، مسجلا أهم اللطائف والمعاني التي تجعلنا نقف مشدوهين أمام عظمة النص المعجز، لما حواهُ من معانٍ ولطائف غايةٍ في الجمال والإحكام، نحاول في هذا البحث تلمّسها والوقوف على أبرز جوانبها.

Abstract

This research means the objective extrapolation of the word (head) in the Holy Qur'an and its traceability in its place and in light of the place it was driven for in order to know its significance and to derive its meaning through its system that took place on it، and in fact it is an objective interpretation of a Qur'anic term that is frequently mentioned in the Holy Qur'an، as it is considered a type Among the types of objective interpretation that pertains to searching for the Qur'anic term in order to dwell on its secrets and explain its sects. With the complete extrapolation of this singular in the dear hymn، the researcher found that it was mentioned in eighteen places of the wise dhikr، and each of these places has a special use and special indication for which he was led، the research revealed it among its folds، registering the most important sects and meanings that make us stand distressed before the greatness of the miraculous text، when It contains very meanings and meanings of beauty and firmness. In this research، we try to touch it and find its most important aspects.

المقدمة

لقد امتلكت المفردة القرآنية حركة موضوعية في سياقاتها التعبيرية، فهي كالدُّرة وسط العقد الثمين، فلا يمكن استبدالها بأيِّ مفردة أُخرى في اللسان العربي أجمع، ولذا حقَّ لابن عطية الأندلسي (ت : ٥٤٢هـ) أن يقول واصفاً كلام ربِّه المعجِز بأنه: (لو نُزعت منه لفظة ثم أُدير لسان العرب في أن يُوجِد أفضل منها لم يُوجد)[١]. ويأتي هذا البحث في سياق التفسير الموضوعي للمفردة القرآنية الذي يُعدُّ لوناً من ألوان التفسير الموضوعي الذي أشار إليه أهل العلم[٢]، فهو يختص بالبحث عن المفردة القرآنية واشتقاقاتها وتتبع مواضع ورودها في النص القرآني الكريم، ثم النظر إلى سياق الآي الذي وردت فيه، بهدف استنباط دلالاتها من خلال استعمالها في النَّسق الذي جَرَت عليه[٣]. وقد عُني الباحث في هذه الدراسة بتتبع مفردة (رأس) والنظر في دلالتها السياقية في كل موضعٍ من مواضع الذكر الحكيم، مُتلمِّساً أبرز المعاني واللطائف ما أمكنه الوقوف عليها في ذلك النظْم المعجِز، مستمداً من العصب الفكري لسياق الآي كل ما ظفر به من معاني، لأن دلالة السياق تُعدُّ أصلاً ثابتاً من أصول فهم كتاب الله تعالى، وبالزيغ عنها يضع الدارس قدمه على عتبات الزلل، ويسلك مسالك الخلل، وتتصف آراؤه بالشذوذ والعلل، وحينئذٍ يعظم الخطب ويحلُّ الجلل. لذا فقد ورد في بيان أهمية السياق وفائدته وما يرمي إليه ما نصّهُ: (السياق يُرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته)[٤]. ولأجل ما تقدَّم فقد شدَّ الباحث رحاله متوكلاً على الله الذي يتوكل عليه المتوكلون في بحثٍ متواضع أسماه بـ**(التفسير الموضوعي لمفردة (رأس) في القرآن الكريم/ دراسة في ضوء علم السياق القرآني)** وقد اقتضت منهجية البحث أن تكون مُقسَّمة على ثلاثة مباحث وخاتمة بنتائج البحث على النحو الآتي:

المبحث الأول : المراد بالتفسير الموضوعي المبحث الثاني : المراد بالسياق القرآني

المبحث الثالث : مفردة (رأس) أنموذجا للتفسير الموضوعي

وأما الخاتمة فهي عبارة عن عصارة الحقائق التي خرج بها الباحث. والله تعالى وحده اسألُ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعلني في عداد من ينضوون تحت لواء القرآن وهدى النبي الكريم وعترته الطيبين الطاهرين، فإن كان ما وصلت إليه في هذا البحث وافياً أو قريباً من الوفاء فإني أشكر الله عليه، وإن لم يكن كذلك فحسبي أن أحظى بأجر من اجتهد فأخطأ، وكلُّ ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وهو حسبي.

المبحث الأول المراد بالتفسير الموضوعي

توسعت آراء أهل العلم في تعريف التفسير الموضوعي إلى عدَّة تعريفات، لكن قبل الشروع بذكر تلك التعريفات، يرى الباحث من الضرورة في هذا المقام أن يشير إلى جملة من الملحوظات التي استقرَّت في مخيَّلته بعد إنعامه النظر في تلكمُ التعريفات:

٠١ لقد اختلف أهل العلم في تسمية هذا النوع من التفسير، فبعضهم سمَّوه علماً، وبعضهم عدَّوه منهجاً، وآخرون رأوه وسيلة من وسائل التفسير تُتناول بوساطته كل المناهج التفسيرية.

٠٢ إنَّ بعض هذه التعريفات يتسم بالإيجاز، وبعضها يتسم بالإطناب، ويكون التفسير الموضوعي بهذه الحال إلى الشرح أقرب منه إلى التعريف المحدد الذي ينبغي أن يكون بعبارات موجزة.

٠٣ إنَّ بعضاً من هذه التعريفات يصدق الانطباق على نوع معين من أنواع التفسير الموضوعي، وهو الموضوع القرآني، ولا ينطبق على الأنواع الأخرى كالتفسير الموضوعي للمفردة أو السورة.

٠٤ قصور بعض هذه التعريفات على جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع المراد البحث عنه، بينما زادت بعض التعريفات خطوات أخرى على هذه الخطوة، كمراعاة سبب النزول، والاستعانة بالحديث الشريف، وأقوال العلماء المتعلقة بالموضوع. فبعد ذكر هذه الملحوظات على تعريفات أهل العلم يمكن للباحث اصطفاء ستٍ من أبرز تلكمُ التعريفات:

٠١ عرف السيد محمد باقر الحكيم (ت : ١٤٢٤هـ) التفسير الموضوعي بأنه: (دراسة موضوعات معينة تعرض لها القرآن الكريم في مواضع متعددة أو موضع واحد، وذلك من أجل تحديد النظرية القرآنية بملامحها وحدودها في الموضوع المعين)[٥].

٠٢ وعُرف بأنه: (علمٌ يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة في معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة، لبيان معناها واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع)[٦].

٠٣ وعُرف بأنه: (منهجٌ مستحدثٌ في تفسير القرآن يُوظف لسبر أغوار الموضوع من خلال القرآن كله أو سورة منه للخروج بتصور حوله أو نظرية فيه)[٧].

٠٤ وعُرف بأنه: (المنهج الذي يتخذه المفسر سبيلاً للكشف عن مراد الله من خلال المواضيع التي يطرحها القضايا التي يعالجها، توضيحا لهداية القرآن، وتجلية لوجوه إعجازه)[٨].

٠٥ وعُرف بأنه: (إفراد الآيات القرآنية التي تعالج موضوعاً واحداً وهدفاً واحداً بالدراسة والتفصيل، بعد ضم بعضها إلى بعض، مهما تنوعت ألفاظها وتعددت مواطنها، دراسة متكاملة مع مراعاة المتقدم والمتأخر منها والاستعانة بأسباب النزول والسنة النبوية وأقوال السلف الصالح المتعلقة بالموضوع)[٩].

٠٦ ومما قيل فيه أيضاً: (إنَّ التفسير الموضوعي ليس منهجاً مستقلاً عما سواه من المناهج، بل لا يصلح أن يوصف بالمنهجية وشأنه كذلك، فهو ليس إلا وسيلة من وسائل التفسير يتناول بواسطته كل المناهج التفسيرية)[١٠]. والآن بعد ذكر التعريفات المتقدمة والملحوظات عليها، يمكن أن تجود قدرة الباحث في وضع تعريفٍ شاملٍ للتفسير الموضوعي يتمثل بالقول الآتي: (هو المنهج العلمي الذي يتوصل المفسر بوساطته إلى البحث عن القضايا القرآنية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والكشف عن مقاصدها من خلال القرآن الكريم كله أو سورة من سوره، مراعياً في ذلك الترتيب، والتجزيء، والموضع، والتسلسل، والتحليل). فأما قول الباحث "المنهج العلمي" فيأتي لسببين هما:

احدهما: تحرير محل النزاع الحاصل بين الأقوال المتقدمة بوصفه علماً أو منهجاً أو وسيلة.

وثانيهما: إنه "منهج" بوصفه طريقاً واضحاً يسلكه المفسر للوصول إلى المراد، وهذا المعنى قريب ممَّا يؤيده المعجم اللغوي[١١]، وهو "علمي" بوصفه يتسم بسمات العلم التي تجعله خاضعاً للقبول والرد، وهذا المعنى قريب ممَّا يؤيده المعجم اللغوي أيضا[١٢]. وأما قولنا: "البحث عن القضايا" فيأتي لشمول هذا التعبير الموضوعات والمفردات، إذ تندرج جميع المصطلحات والمفردات والموضوعات المراد البحث عنها تحت هذا التعبير. وأما قولنا: "الكشف عن مقاصدها" فيأتي لأنَّ المفسر الموضوعي بعد جمعه تلك القضايا يلجأ إلى بيان ما بينها من وحدة سياقية في المعنى، أو وحدة في الغاية أو الهدف.وأما قولنا: "مراعياً في ذلك الترتيب، والتجزيء، والموضع، والتسلسل، والتحليل" فإنَّ التفسير الموضوعي هو "ترتيبيٌّ" لأنَّه يسير مع معاني الآيات على وفق ترتيبها في المصحف الشريف وكما هي عليه، وهو "تجزيئيٌّ" لتناوله القرآن الكريم على وفق أجزاء وآيات، سواء أكان ذلك في القرآن كله أم في سورة منه، ولا يدرس القرآن بوصفه وحدة واحدة، وهو "موضعيٌّ" لتناوله الآيات القرآنية تناولاً موضعياً، بحيث يلجأ المفسر فيه إلى تناول الموضوع الواحد وهو "تسلسليٌّ" لأنَّ المفسر يراعي فيه التسلسل الزماني

والمكاني المتمثل في سبب النزول، وهو "تحليليٌ" لأنَّ المفسر يتولى فيه بيان معاني الألفاظ في الآيات، واختلافات المفسرين، وقد يطنب أو يوجز في شرح مسألة فقهية أو نحوية أو بلاغية ...الخ.

المبحث الثاني المراد بالسياق القرآني

١- **السياق لغةً:** أصل لفظة "سياق" في المعجم اللغوي مأخوذ من ساقَ يسوقُ، وأصله سِوَاق، فقُلبت الواو ياءً، لكسر السين. قال الجوهري (ت: ٣٩٣هـ): (ولدت فلانة بنين على ساق واحد: أي بعضهم على اثر بعض، ليس بينهم جارية، والسياق نزع الروح، يقال: رأيت فلاناً يسوق: أي ينزع عند الموت) [١٣]. وقال ابن فارس (ت : ٣٩٥هـ): (السين والواو والقاف: أصل واحد، وهو حَدْوُ الشَّيء، يقال: ساقه يسوقه سَوقًا)[١٤].وجاء في المعجم الوسيط[*]: (سياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه)[١٥].وبالقراءة الفاحصة وجد الباحث أن لفظ (السياق) قد كثُر استعماله عند الأصوليين من دون عنايتهم بتعريفه، فيوردون مثلاً تعبير: سياق الكلام، وسياق النَّظم، واللفظ الظاهر فيما سِيق له، والمقام الذي سيق لأجله الكلام، وما جرى عليه الكلام وسياقُه، والنكرة في سياق الشرط، والفعل في سياق الشرط، ونحو ذلك من استعمالاتهم لمفردة السِّياق[١٦].

٢- **السياق اصطلاحاً:** عُرف السياق بتعريفات عديدة اختلفت في المبنى وتقاربت في المعنى، فكانت أغلبها تحوم حول معنى: التتابع والتوالي والاتصال. فقد عرف اللغوي ستيفن اولمان السياق بأنه: (النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم)[١٧]. وإذا اتخذنا من تعريف ستيفن مجالاً للتطبيق على النص القرآني الكريم فإنَّ السياق ينبغي أن لا يقتصر على الكلمات والجمل السابقة واللاحقة فحسب، وإنما على النَّص كله والقرآن الكريم كله، يضاف إلى ذلك الظروف والمناسبات التي أحاطت باللفظ القرآني. ويعُرف د. إبراهيم فتحي السياق بأنه: (بناء كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأيّ جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة، ودائما ما يكون سياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط بحيث يلقي ضوءاً لا على المعاني فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها، وكثيراً ما يغير المحيط الذي توجد فيه العبارة من المعنى الذي كان يبدو واضحا في العبارة ذاتها أو يوسعه أو يعدل)[١٨]. ويعرف د. المثنى عبد الفتاح السياق القرآني بأنه: (تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال)[١٩]. إذن من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للسياق يتضح: أن السياق يمثل الصورة الكليَّة التي تحوي بداخلها الصور الجزئية، ولا يُفهم الجزء إلا من خلال النظر إلى نظمه التعبيري الذي جرى عليه.

المبحث الثالث مفردة (رأس) أنموذجاً للتفسير الموضوعي

وردت كلمة (رأس) في نحو ثمانية عشر موضعاً من الذكر الحكيم، بدلالات متعددة، وسياقات مختلفة، وذلك على التفصيل الآتي بيانه:

١. قوله تعالى في سورة البقرة: **(وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ)**[٢٠].

٢. وقوله تعالى في السورة نفسها: **(فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ)**[٢١].

٣. وقوله تعالى في السورة نفسها: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ)**[٢٢].

٤. قوله تعالى في سورة المائدة: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ)**[٢٣].

٥. قوله تعالى في سورة الأعراف: **(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)**[٢٤].

٦. قوله تعالى في سورة يوسف: **(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)**[٢٥].

٧. قوله تعالى في السورة نفسها: **(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)**[٢٦].

٠٨ قوله تعالى في سورة إبراهيم: **(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء)**[٢٧].

٠٩ قوله تعالى في سورة الإسراء: **(وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا)**[٢٨].

٠١٠ قوله تعالى في سورة مريم: **(كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)**[٢٩].

٠١١ قوله تعالى في سورة طه: **(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)**[٣٠].

٠١٢ قوله تعالى في سورة الأنبياء: **(قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ)**[٣١].

٠١٣ قوله تعالى في سورة الحج: **(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)**[٣٢].

٠١٤ قوله تعالى في سورة السجدة: **(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)**[٣٣] .

٠١٥ قوله تعالى في سورة الصافات: **(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ)**[٣٤].

٠١٦ قوله تعالى في سورة الدخان: **(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاء الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)**[٣٥].

٠١٧ قوله تعالى في سورة الفتح: **(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)**[٣٦].

٠١٨ قوله تعالى في سورة المنافقون: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)**[٣٧].

إنَّ من يُنعم النظر متأملاً هذه المواضع يستقر في مخيَّلته ويستنبط ما يأتي:

٠١ إنَّ كلمة (رأس) في الذكر الحكيم لم ترِدْ بصيغة النكرة، وإنَّما جاءت مُعرَّفة بالألف واللام في موضع واحد هو قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيباً) ومُعرَّفة بالإضافة إلى ياء المتكلم في موضعين هما قوله تعالى: (أحمل فوق رأسي) وقوله تعالى: (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) ومُعرَّفة بالإضافة إلى ضمير الغائب (الهاء) في ثلاثة مواضع هي قوله تعالى: (أو به أذىً من رأسه) وقوله تعالى: (فتأكل الطير من رأسه) وقوله تعالى: (ثم صبُّوا فوق رأسه) ومُعرَّفة بالإضافة إلى ضمير المخاطب في ثلاثة مواضع هي قوله تعالى: (ولا تحلقوا رؤوسكم) وقوله تعالى: (وامسحوا برؤوسكم) وقوله تعالى: (محلقين رؤوسكم) ومُعرَّفة بالإضافة إلى ضمير الغائبين في ستة مواضع هي قوله تعالى: (مقنعي رؤوسهم) وقوله تعالى: (فسينغضون إليك رؤوسهم) وقوله تعالى: (ثم نُكسوا على رؤوسهم) وقوله تعالى: (يُصبُّ من فوق رؤوسهم) وقوله تعالى: (ناكسوا رؤوسهم) وقوله تعالى: (لوَّوا رؤوسهم) ومُعرَّفة بالإضافة إلى الاسم الظاهر في ثلاثة مواضع هي قوله تعالى: (وأخذ برأس أخيه) وقوله تعالى: (رؤوس أموالكم) وقوله تعالى: (رؤوس الشياطين).

٠٢ إنَّ كلمة (رأس) لم ترد بصيغة المثنى، وإنما جاءت بصيغة الإفراد في سبعة مواضع، وأمَّا بقية المواضع فقد جاءت بصيغة الجمع وهذا واضحٌ فيما تقدَّم ذكره. وبإنعام النظر وتأمل صور السياقات المختلفة لآي الذكر العزيز واستعمالاته لكلمة (رأس) اتضح لنا أن الرأس تشتعل شيبا، ويؤخذ بها، ويؤخذ فوقها خبز، ويأكل الطير منها، ويصب من فوقها الحميم، وتقنع وتنغض، وتنكس ويُنكس عليها، وتلوى، وهي في فريضة الحج تحلق أو تقصر، وحال الوضوء يمسح بها، كما أنها أضيفت إلى الأموال وإلى الشياطين.

والآن نستطيع أن نتلمَّس أبرز المعاني التفسيرية والوقوف على الأسرار التعبيرية في استعمال هذه المفردة في موضعها المناسب، لأنَّ التعبير القرآني تعبيرٌ دقيق وُضعت فيه كل كلمة وضعاً فنياً مقصوداً، فلا يمكن استبدال أيَّ مفردة بأخرى أو تقديم ما حقَّه التأخير أو تأخير ما حقَّه التقديم، لأنَّه سَيَحدث خللٌ في التعبير الكريم واضطرابٌ وضياعٌ في فكرة الآي المبارك. إنَّ السرَّ الدلالي وراء مجيء كلمة (رأس)

معرفة –كما يلُوح لنا والله أعلم– يكمن في الإشارة إلى عِظم الرأس وعلوّ شأنه وسموّه بالنسبة إلى غيره من أعضاء جسم الإنسان، إذ فيه أودع الله تعالى نعمة العقل والعين واللسان والأذن، فالرأس بحملها هذه الأعضاء المهمة من جسم الإنسان ينبغي أن تكون معرَّفة لا نكرة لأنَّ التعريف فيه دلالة على التعظيم والتشريف[٣٨] ، ولذا نجد أنَّ التعبير القرآني الكريم لم يستعمل كلمة (رأس) نكرة حتى في مقام التحقير والتوبيخ مع الكافرين والمعاندين ليؤكد لهم عِظم النعمة التي منحها الله إياهم، لكنهم عطَّلوها ولم يعوها وإنما ساروا وراء رغباتهم وشهواتهم الزائفة.وإنَّ تعريف (رأس) بصيغ مختلفة في الآي المبارك وراءه مغزىً فنيٌّ دقيق، فنجد التعبير الكريم في مقام العناد أو التوبيخ أو الخضوع أو الانكسار أو الندم يستعمل كلمة (رأس) مضافة إلى ضمير الغيبة للدلالة على حقارة المخاطَبين وصغر شأنهم، إذ ينبغي ألَّا يُخاطبوا مباشرة وإنما يُعبَّر عنهم بطريق الغيبة حطاً من شأنهم واستصغاراً لهم، ولنتأمل قوله تعالى: **(مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء)** وقوله تعالى: **(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً)** وقوله تعالى: **(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ)** وقوله تعالى: **(يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)** وقوله تعالى: **(نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ)** وقوله تعالى: **(لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ)** فقد أبعد الذكر العزيز في هذه المواضع المخاطَبين عن شرف الخطاب، وهذا أسلوبٌ شائعٌ في القرآن الكريم، إذ نجد التعبير الكريم في كثير من المواضع لا يُصرِّح بذكر المخاطَب على نحوٍ مباشر تصغيراً وتحقيراً لـه. وقد يقول قائل: إنَّ مجيء كلمة (رأس) مضافة إلى ضمير الغيبة في مقام العناد والتوبيخ والتحقير ....الخ ليس صحيحاً، فقد وردت في الترتيل العزيز مضافة إلى ضمير الغيبة في غير هذه المقامات كقوله تعالى: (**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**) وقوله تعالى: **(وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ)؟**. فنقول: إنَّ قوله تعالى: **(أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ)** قد ورد في سياق الخطاب وهو قوله تعالى: **(وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ)** فليس فيه شيء من الإضافة كما في الإضافة في مقام الإهمال والعناد والتوبيخ ...الخ.ولعل إضافة الرأس إلى ضمير الغائب في قوله تعالى: **(وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ)** تدلُّ على الجرم الذي ارتكبه صاحب هذه الرأس بوصفه أراد أن يدس السمَّ في طعام الملك من دون صاحبه[٣٩]. يقول محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) معضِّداً هذا المعنى: (وكان سبب حبس الملك الفتيين فيما ذكر، ماحدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا عمرو، عن أسباط، عن السدي، قال: إنَّ الملك غضب على خبَّازه، بلغه أنه يريد أن يسمّه، فحبسه وحبس صاحب شرابه، ظنَّ أنه مالأه على ذلك. فحبسهما جميعًا، فذلك قول الله: "ودخل معه السجن فتيان"[٤٠])[٤١]. وبكل تأكيد إن استحقاق مرتكب هذا الجرم يوجب الطرد والإبعاد والإهمال، لذا كانت إضافة الرأس هنا إلى ضمير الغيبة من أجل الإفصاح عن هذا المعنى. وتجد الذكر الحكيم في مقام الدعاء والحوار والتكليف يستعمل كلمة (رأس) مُعرَّفة بالألف واللام أو بالإضافة إلى ضمير التكلم أو إلى ضمير الخطاب أو إلى الاسم الظاهر، وهذا الاستعمال ليس عبثاً أو مصادفة عشوائية ، وإنما لحكمة فنية يعرفها أرباب البصر بالتعبير وكل من أوتي نصيباً من تذوُّق النصوص ومعرفة مواقع الكلم. ولو تأملنا قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيباً) لتجلى لنا فيه الدلالة على رضا زكريا –عليه السلام– بالشيب وإحساسه به إحساساً مشرقاً يوحي بتقبل الشيب بالبهجة والسرور[٤٢]، ذلك لأن التعبير الكريم قد صورة الشيب بالشواظ البارق، وصوَّر حالة انتشاره في الرأس بالاشتعال اللامع، مما يدل على أن لا وجود للحزن هنا، لأنَّ تعريف كلمة (رأس) بالألف واللام – كما يقول الجرجاني – يوحي بتقبل زكريا للشيب بالفرح والسرور، وهذا هو إحساس كل مؤمن بالشيب لأنَّه يقربه من خالقه تبارك وتعالى، بخلاف لو قال (واشتعل رأسي شيباً) فإنَّه تصوير للحزن والأسى الذي يعتري زكريا. يقول عبد القاهر الجرجاني (ت : ٤٧١ هـ) في هذا المورد: (واعلمْ أَنَّ في الآيةِ الأُولى شيئاً آخرَ من جنْس النظْم وهو تَعريفُ الرأسِ بالأَلِف واللاَّم، وإفادةُ معنى الإضافةِ من غَيْر إضافةٍ، وهو أَحدُ ما أوجبَ المزيَّةَ. ولو قيل: "واشتعلَ رأسي" فصرَّحَ بالإضافة، لذهب بعض الحسن، فاعرفه)[٤٣]. إنَّ الحسن الذي يقصده الجرجاني يرجع إلى دلالة سياق الآي المبارك على الإضافة من غير تصريح بها، وكأنه أضاف كلمة (رأس) إلى زكريا من دون أن يُصرِّح بإضافتها، لأنَّه لو صرَّح بإضافتها لأشعر بشيء من الأسى والحزن الذي يعتري زكريا فهذه القرينة قد دلت على رضا زكريا بالشيب وتقبله لها ولو صرَّح بإضافتها وقال: (واشتعل رأسي) لدل التعبير الكريم على حالة الحزن التي تعتري المتكلم[٤٤]. وقال البيضاوي (ت: ٦٩١هـ) عند تفسير هذه الآية: (شبَّه الشيب في بياضه وإنارته بشواظ النار وانتشاره وفشوه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجه مخرج الاستعارة وأسند الاشتعال إلى الرأس الذي هو مكان الشيب مبالغة، وجعله مميزاً إيضاحاً للمقصود، واكتفى باللام على الإضافة للدلالة على أن علم المخاطب بتعين المراد يغني عن التقييد)[٤٥]. وأمَّا في سياق الحديث عن حلق الرأس والتقصير في قوله تعالى: **(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)** وقوله تعالى: **(وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ**

مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) وعن مسح الرؤوس والأرجل في قوله تعالى: **(إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ)** فكما هو واضحٌ من السياق أنَّ كلمتي (رأس) في الآية الأولى والثانية قد وردتا في سياق الحديث عن فريضة الحج، في حين أنَّ كلمة (رأس) الثالثة وردت في سياق الحديث عن الطهارة وأداء الصلاة، وكلا السياقين يشتركان في موضوع عام يوحِّد بينهما يتمثل في أداء فريضتين من فرائض الإسلام هما: الصلاة والحج[٤٦]، لذا كان السياق موحَّداً في استعمال كلمة (رأس) مضافة إلى ضمير الخطاب في هذه المواضع. وأما في سياق الحديث عن الأخذ بالرأس في قوله تعالى: **(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)** وقوله تعالى: **(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)**.يظهر من التعبيرين (وأخذ برأس أخيه) وقوله: (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) الدلالة على القوة والشِّدة في الأخذ، ولذا عدَّى التعبير الكريم الفعل (أخذ) بالباء مع كونه يتعدَّى بنفسه، إلا أنَّ ثمة فرقاً بين أن نقول: (أخذ رأسي) وبين أن نقول: (أخذ برأسي) فالثاني أشدُّ أخذاً وأكثر قوةً وفي هذا المعنى يقول المفسِّر الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) ما نصّهُ: ("وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ" أي بشعر رأسه "يَجُرُّهُ إِلَيْهِ" وذلك لشدّة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته، وظناً بأخيه أنه فرط في الكف)[٤٧]. هذا من جانب، ومن جانب آخر إنَّ موسى –عليه السلام– حينما أخذ برأس أخيه هارون وجرَّه إليه لم يُرد من هذا الأخذ أهانته أو الإساءة إليه وإنَّما فعل بأخيه هذا الفعل كما يفعل الغاضب مع نفسه في حال الغضب حينما يقبض على شيبته أو يأخذ بناصيته أو يعضُّ على شفتيه وما إلى ذلك، بمعنى أنه جعل أخيه بمنزلة نفسه.يقول الفخر الرازي (ت : ٦٠٦ هـ) بهذا الصدد: (إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْبَلَ وَهُوَ غَضْبَانُ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ وَجَرَّهُ إِلَيْهِ كَمَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ مِثْلَ ذَلِكَ عِنْدَ الْغَضَبِ، فَإِنَّ الْغَضْبَانَ الْمُتَفَكِّرَ قَدْ يَعَضُّ عَلَى شَفَتَيْهِ وَيَفْتِلُ أَصَابِعَهُ وَيَقْبِضُ لِحْيَتِهِ، فَأَجْرَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَاهُ هَارُونَ مَجْرَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ كَانَ أَخَاهُ وَشَرِيكَهُ فَصَنَعَ بِهِ مَا يَصْنَعُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ فِي حال الفكر والغضب)[٤٨]. وقريبٌ من كلام الرازي ما ذهب إليه أبو السعود العمادي (ت: ٩٨٢هـ) بقوله: ({قَالَ يابن أُمَّ} خَصّ الأمَّ بالإضافة استعظاماً لحقها وترقيقاً لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأم فإن الجمهورَ على أنهما كانا شقيقين **{لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى}** أي ولا بشعر رأسي، روي أنه عليه السلام أخذ شعرَ رأسِه بيمينه ولحيتَه بشماله من شدة غيظِه وفرْطِ غضبِه لله، وكان عليه السلام حديداً متصلّباً في كل شيء فلم يتمالكْ حين رآهم يعبدون العجلَ ففعل ما فعل)[٤٩]. ومن غريب الآراء ما ذهب إليه بعض المفسرين في تفسير هذه الآية من أن يكون مراد موسى –عليه السلام– من هذا الأخذ هو التكريم لأخيه أو التعظيم له، خوفاً من تشكيك المشككين وطعن الطاعنين في عصمة الأنبياء –عليهم السلام[٥٠]. نقول: إنَّ هذا الرأي يأباه السياق ولا يتماشى مع صريح الآي المبارك، نعم: وإن كان متعارفاً لدى العرب أن يأخذ الرجل بناصية أخيه تكريماً أو تعظيماً له ولكن في غير هذا المقام وفي غير هذا السياق، لأنَّ سياق الآي هنا كله مسوق إلى جهة الحديث عن الغضب الذي اعترى موسى –عليه السلام– حينما رجع إلى قومه، وحينئذٍ نقرر أنَّ المراد من أخذ الرأس ليس إذلالاً وليس تكريماً لهارون –في نفس الوقت– وإنما أراد موسى ضمَّ أخيه إليه بقوة لشدة الغضب الذي اعتراه وليطلعه على ما لديه ويعلمه بحقيقة ما حدث من أمر. ومن الأسرار الدلالية التي ينطوي عليه التعبير القرآني في هاتين الآيتين حذف (يا) النداء في الآية الأولى وهي قوله تعالى: (قال ابن أم إن القوم استضعفوني) وورودها في الثانية في قوله تعالى: (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) والسر في ذلك أنَّ موسى –عليه السلام– في الآية الأولى أخذ برأس أخيه وجرَّه إليه يعني: ضمَّه، وهنالك حدث اقتراب بينه وبين أخيه وهذا الاقتراب يناسبه حذف (يا) النداء من الآية، لأنَّ الياء تستعمل لنداء البعيد، بخلاف الآية الثانية إذ إنها لم تُشر إلى الإخبار بأخذ الرأس ولا بالجر أو الضم إليه، وإنما كل ما ورد في التعبير الكريم يدلُّ على أسئلة موجَّهة من موسى إلى أخيه هارون –عليهما السلام– فلم يكن هنالك اقتراب بينهما كما حصل في الآية السابقة نتيجة الأخذ والجر، فناسب –والله أعلم– أن يُذكر حرف النداء في هذا السياق[٥١]. وأمَّا في سياق الحديث عن حمل الخبز على الرأس وأكل الطير منه في قوله تعالى: **(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)** وقوله تعالى: **(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)** فقد استُعملت كلمة (رأس) في مقام الحوار وفي سياق الحديث عن قصة الفتيين الذين دخلا السجن مع يوسف –عليه السلام– وكيف أنهما طلبا منه تأويل رؤياهما التي رأياها. وبالتأمل الدقيق للنَّظم القرآني المبارك في الآيتين يلُوح للباحث أنَّ المقصود من الحمل في قوله تعالى: (أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً) ليس المدح لصاحب الرأس وإنَّما الذَّم والحطّ من قدر صاحبها، فالرأس هي رأس الخباز الذي نوى الشر

حينما أراد دسَّ السمِّ للملك، فحينما نوى الشر وفكَّر في دسِّه السمَّ لابدَّ حينئذ من تحقيره والحطّ من قدره[٥٢]. قال محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) في تفسير هذه الآية مؤيداً هذا الاستدلال: (إنَّ أحدهما خباز الملك، والآخر ساقيه، وقد كانا وضعا للملك سماً لما ضمن لهما أهل مصر مالاً في مقابلة ذلك، ثم إنَّ الساقي رجع عن ذلك وقال للملك: لا تأكل الطعام فإنه مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز كلْ فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما، وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف)[٥٣].وجاء في تفسير تيسير التفسير لإبراهيم القطان (ت:١٤٠٤هـ) في وصف حال الفتيين: (كان أحدهما رئيس الخبازين عند الملك، والثاني رئيسَ السقاة، وقد سُجنا لخيانة نُسبت إليهما كانت ستودي بحياة الملك، وبعد أن استقر يوسف في السجن ظهر أمره للناس، وانه يختلف عن السجناء الآخرين، وفي ذات يوم جاءه صاحب شراب الملك واخبرنه انه رأى في منامه انه يعصر خمراً للملك، وجاءه الخباز وقال له: إني رأيتُ فوق رأسي طبقاً من الخبز تأكل منه الطيور، وطلبا إليه أن يفسر لكل واحد منهما ما رأى في منامه، فانتهز يوسف هذه الفرصةَ ليُعلنَ لهم دِينَه ويدعوهم اليه، وقال لأهل السجن ينبئهم بمقدرته على تأويل الرؤيا: لن يأتيكما طعام إلا نبأتكما بشأنه)[٥٤]. علاوة على ما تقدَّم فإنَّ التعبير عن صاحب الرأس في الآيتين بكلمة (الآخر) يدل على الحال السيئ له وبعده عن الخير، ولو لم يكن بهذه الحال لما عبَّر عنه الذكر الحكيم بـ(الآخر).وبتأمل سياق الذكر أكثر فأكثر نجد أنَّ وراء بناء الفعل (يُصلب) للمجهول وتوالي العطف بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيب في قوله (فيُصلب فتأكل الطير من رأسه) مغزىً فنيٌّ يكمن في الإشعار بشدة الأخذ وسرعة الصلب، وأُضيفت الرأس إلى ضمير الغيبة هنا لأنها قد استُعملت في الذكر الحكيم بهذا الاستعمال في مقام المكابرة والندم والعناد والانكسار والتحسر....الخ. وأمَّا في سياق الحديث عن رؤوس الأموال في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ)**. فقد وردت كلمة (رأس) هنا مضافة إلى الأموال وهي بهذه الإضافة توحي بعظم هذه الأموال وطهارتها وبعدها عن الحرام، وتكون قد اكتسبت نقائها وطهارتها من إضافة الرؤوس إليها، لأنَّ الرأس –كما ذكرنا– يعدُّ أسمى وأشرف أعضاء الجسم الإنسان ولو لم تكن تلك الأموال على مستوىً من الطهارة والنقاء لما شرَّفها الباري تعالى بإضافتها إلى الرؤوس، وعليه فهي تستمد شرفها وعظمتها من شرف الرأس وعظمته. يقول العلامة الطبطبائي (ت : ١٤١٢هـ) في قوله تعالى: "**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ**": (وفي الآية دلالة على إمضاء أصل الملك أولاً، وعلى كون أخذ الربا ظلماً ثانياً، وعلى إمضاء أصناف المعاملات حيث عبَّر بقوله "رؤوس أموالكم" والمال إنَّما يكون رأساً إذا صُرف في وجوه المعاملات وأصناف الكسب ثالثاً)[٥٥]. وفي سياق الحديث عن رؤوس الشياطين في سورة الصافات في قوله تعالى : **(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)**. نجد في النص أعلاه أنَّ التصوير القرآني يبين أنَّ شجرة الزقوم طعامٌ أثيمٌ وهذا الطعام الأثيم يشبّه المهل الذي يغلى في البطون كغلي الحميم، ويوضِّح أنَّ شجرة الزقوم تنبت في أصل جهنم، وأنَّ لها طلعاً يشبه في مظهره رؤوس الشياطين، ولا يعنينا البحث في بيان المراد من الشجرة بمصاديقها ومداليلها المتعددة التي اختلف المفسرون فيها بقدر التركيز على السياق الذي وردت فيه كلمة (رأس) من التعبير الكريم والدلالة التفسيرية التي تضمنتها. فالذي يبدو –والله أعلم– أن استعمال التعبير القرآني لكلمة (رأس) في قوله: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِين) يدلُّ على معنى آخر اقتضاه سياق السورة مما يزيد رؤوس الشياطين قبحاً علاوة على قبحهم. فإذا أنعمنا النظر في سياق الآي الكريم نستنتج أن هنالك سبباً آخر للقبح والكراهية غير الذي هو مألوف في أذهان الناس واعتقاداتهم؟ وهذا السبب يتمثل في كون رؤوس الشياطين يستتر فيها الإغواء والوسواس والمعاصي لأولياء الشيطان الظالمين من إنس وجان، الذين أغواهم الشيطان وزيَّن لهم سوء عملهم وأدخلهم جهنم بسبب ذلك الإغواء، فحينئذ يتذكرون نزغة الشيطان وإغوائه لهم فيستقبحون استجابتهم له، ويستقبحون تلك الرؤوس التي استتر فيها الإغواء والوسواس وانبعثت منها تلك الشرور[٥٦].وفي النهاية لا بدَّ لنا أن نفصح عن حقيقة ونقول: إنَّ التتبع الدقيق للمفردة القرآنية في موقعها الجغرافي وفي إطار سياقها الذي وردت فيه يكشف عن كثير من المزايا واللطائف التي لا يمكن لدارس القرآن الكريم أن يهتدي إليها إلا من خلال هذا التتبع، وهذه مهمة ينبغي أن ينهض بها كل المعنيين والمهتمين بالشأن القرآني لاستظهار أكبر قدر ممكن من كنوز كتاب الله الخالد، مساهمة في إبراز مظهر من مظاهر إعجازه اللغوي عجز عن مجاراته أرباب الفصاحة والبلاغة وعمالقة البيان ممَّن بلغت الرُّقيَّ عباراتهم ولكن لم يصمد أمامه أحدٌ منهم، فلله ما أروعك يا كتاب الله المعجز!.

خاتمة البحث

ها هنا أسلمت مراكب رحلة الباحث إلى مرفأ الخاتمة، ولا بدَّ من الإفصاح عن أهم النتائج التي ظفر بها الباحث، يمكن إجمالها على النحو الآتي:

١- إنَّ هذه الدراسة من حيث التصنيف تعدُّ لوناً من ألوان التفسير الموضوعي الذي يعنى بالبحث عن المفردة القرآنية وتتبع مواضع ورودها في الذكر الحكيم واستنباط دلالاتها من خلال السياق الذي وردت فيه.

٢- لقد اختلف الدارسون في تعريف التفسير الموضوعي وتوسعت أقوالهم في أن يضعوا حدَّاً له، فبعضهم عدَّوه علماً، وبعضهم عدَّوه منهجاً، بينما رآه آخرون بأنه وسيلة تتناول بوساطته كل المناهج التفسيرية.

٣- لقد ورد مجيء مفردة (رأس) في ثمانية عشر موضعاً من آي القرآن المجيد، ولكلِّ موضع من هذه المواضع استعمال خاص ودلالة خاصة سِيقت لأجله.

٤- لقد أفصح التتبع الدقيق والاستقراء الشامل لهذه المفردة عن عدم مجيء الـ(رأس) بصيغة التنكير في كل مواضع ورودها في القرآن الكريم، والسرّ من وراء ذلك يتمثل في الإشارة إلى عِظم الرأس وعلوِّ شأنه قياساً بسائر أعضاء الجسد.

٥- لم يردْ استعمال الـ(رأس) بصيغة التثنية في كل آي القرآن وإنما جاءت بصيغة الإفراد في سبعة مواضع، وأمَّا بقية المواضع فقد جاءت بصيغة الجمع.

هذا ما وفقني إليه ربي، أسأل المولى سبحانه أن ينفع به، وأن يغفر لي ما زلَّ به قلمي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث

١- المحرر الوجيز، الأندلسي: ٥٢/١ .

٢- ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم: ٢٣+ قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، محمد الميبدي:٤٠٠.

٣- ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الرومي: ٨٦٦/٣ .

٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي: ٣٤/١ .

٥- علوم القرآن، محمد باقر الحكيم: ٣٤٣ .

٦- المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله: ٢٠ .

٧- منهج التفسير الموضوعي دراسة نقدية، سامر عبد الرحمن: ٤٤ .

٨- المصدر نفسه: ٤٣ .

٩- التفسير الموضوعي للقرآن ونماذج منه، الزهراني: ١٢ .

١٠- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الرومي: ٨٦٦/٣-٨٦٧ .

١١- ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس: ٣٦١/٥ مادة "نهج" .

١٢- ينظر: المصدر نفسه، ١١٠/٤ مادة "علم" .

١٣- الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : ١٤٩٩/٤-١٥٠٠ .

١٤- مقاييس اللغة : ١١٧/٣ مادة "سوق" .

(*) وهو من إعداد مجموعة من أهل العلم : إبراهيم مصطفى، احمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

١٥- المعجم الوسيط : ٤٩٥ .

١٦- ينظر على سبيل المثال لا الحصر: الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، مصطفى محمد الزحيلي: ١٠/٢ + العقد المنظوم في الخصوص والعموم، شهاب الدين القرافي: ٣٦٣/١ .

١٧- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، (د.ت)، ص٥٧.

١٨- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية : ٢٠١-٢٠٢ .

١٩- المثنى عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية : ١٥ .

٢٠- سورة البقرة: ١٩٦ .

٢١- سورة البقرة: ١٩٦ .

٢٢- سورة البقرة: ٢٧٨-٢٧٩ .

٢٣- سورة المائدة: ٦ .

٢٤- سورة الأعراف: ١٥٠ .

٢٥- سورة يوسف: ٣٦ .

٢٦- سورة يوسف: ٤١ .

٢٧- سورة إبراهيم: ٤٢-٤٣ .

٢٨- سورة الإسراء: ٤٩-٥١ .

٢٩- سورة مريم: ١-٤ .

٣٠- سورة طه: ٩٤ .

٣١- سورة الأنبياء: ٦٢-٦٥ .

٣٢- سورة الحج: ١٩-٢٢ .

٣٣- سورة السجدة: ١٢ .

٣٤- سورة الصافات: ٦٢-٦٥ .

٣٥- سورة الدخان: ٤٣-٤٩ .

٣٦- سورة الفتح: ٢٧ .

٣٧- سورة المنافقين: ٥ .

٣٨- ينظر: أسرار العربية، الانباري: ١٩٨ .

٣٩- ينظر: التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ١٤٣/٦ .

٤٠- سورة يوسف: ٣٦ .

٤١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري: ١٥٢/١٣ .

٤٢- مقتنيات الدرر، الحائري: ٤/٧ .

٤٣- دلائل الإعجاز، الجرجاني: ٧٤ .

٤٤- ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام احمد الراغب: ٤٠٨ .

٤٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٥/٤ .

٤٦- ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، محمود البستاني: ٤٥/٣ .

٤٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري: ١٦١/٢ .

٤٨- التفسير الكبير، الفخر الرازي: ٩٣/٢٢ .

٤٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٣٨/٦ .

٥٠- ينظر: روض الجنان وروح الجنان، أبو الفتوح الرازي: ٣٦٨ .

٥١- ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، الحلبي: ٣٣٠/٦ .

٥٢- ينظر: التفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ٢٠/٣ .

٥٣- فتح القدير، الشوكاني: ٣١/٣ .

٥٤- تيسير التفسير، إبراهيم القطان: ٢٥٣/٢ .

٥٥- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: ٢٤٣/٢ .

٥٦- ينظر: التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية: ٣٤٠/٦ .

مصادر البحث

◈ **القرآن الكريم كلام الله الخالد**

١- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، رئاسة دار الافتاء والدعوة، مكة المكرمة، السعودية، د. ط، ١٤١٠هـ .

٢- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان،

٣- التفسير البنائي للقرآن الكريم، محمود البستاني، مؤسسة الاستانة الرضوية المقدسة، مشهد- إيران، ط١، ١٤١٤هـ .

٤- التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، مؤسسة الهادي، قم- إيران، ط٢، ١٤١٦هـ .

٥- التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ .

٦- التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ .

٧- التفسير الموضوعي للقرآن ونماذج منه، أحمد بن عبد الله الزهراني، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة- السعودية، د. ط، د..

٨- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين الحلبي، تحقيق: احمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق- سوريا.

٩- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان،

١٠- العقد المنظوم في الخصوص والعموم، شهاب الدين القرافي، تحقيق: احمد الختم عبد الله، دار الكتبي، القاهرة- مصر، ط١، ١٤٢٠هـ

١١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ .

١٣- المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله، دار التوزيع والنشر، القاهرة- مصر، ط١، ١٤١٩هـ .

١٤- المعجم الوسيط ، نخبة من العلماء، دار الدعوة، القاهرة- مصر، د. ط ، د. ت .

١٥- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٢هـ .

١٦- الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، مصطفى محمد الزحيلي، دار الخير للطباعة والنشر، دمشق- سوريا، ط٢، ١٤٢٧هـ .

١٧- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العالمية للطباعة، صفاقس- تونس، ط١، ١٤٠٦هـ .

١٨- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

١٩- أسرار العربية، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الانباري، دار الأرقم بن أبي الأرقم، المدينة المنورة- السعودية، ط١ ، ١٤٢٠هـ .

٢٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي،

٢١- تيسير التفسير، إبراهيم القطان، دار التراث الإسلامي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ .

٢٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، دمشق- سوريا، ط١ ، ١٤٢٠هـ .

٢٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، دمشق- سوريا،

٢٤- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة- مصر، ط٣،

٢٥- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة – مصر، د. ط ، د. ت .

٢٦- روض الجنان وروح الجنان، أبو الفتوح الرازي النيشابوري، تحقيق: محمد مهدي ناصح، منشورات الفكر الإسلامي، مشهد- إيران، .

٢٧- علوم القرآن، محمد باقر الحكيم، مؤسسة الهادي، قم- إيران، ط٣ ، ١٤١٧هـ .

٢٨- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الكلم الطيب، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٤هـ .

٢٩- قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، محمد فاكر الميبدي، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران- إيران، ط١ ،

٣٠- مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق- سوريا، ط١ ، ١٤١٠هـ .

٣١- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط١ ،

٣٢- مقتنيات الدرر، مير سيد علي الحائري، مطبعة الحيدري، طهران- إيران، ط١ ، ١٤٠٢هـ .

٣٣- منهج التفسير الموضوعي دراسة نقدية، سامر عبد الرحمن شواني، دار الملتقى، حلب- سوريا، ط١ ، ١٤٣٠هـ .

٣٤- نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل، عمان- الأردن، ط١، ١٤١٩هـ.

٣٥- وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام احمد الراغب، دار فصلت، حلب-سوريا، د.ط، د.ت.